

مفهوم التجربة عند ويليام جيمس وآثاره على: العقل والفطرة، والأخلاق، والدين دراسة نقدية من منظور إسلامي

د . زياد بن عبد الله الحمام (*)

مقدمة :

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه
وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فقد كان ميدان العلوم بعامة، الفلسفة بخاصة على موعد في مطلع القرن
العشرين مع إرساء قواعد أحد أهم مذاهب الفلسفة الحديثة وهي الفلسفة
البراغماتية^(١)، التي أعادها للظهور الفيلسوف الأمريكي "ويليام جيمس"، والتي

(*) أستاذ العقيدة المشارك بقسم الدراسات الإسلامية- كلية الآداب - جامعة الملك فيصل.
(١) الفلسفة البراغماتية: تعد البراغماتية واحدة من أهم الفلسفات القديمة التي تمتد جذورها
إلى الفيلسوف اليوناني هيراقليطس (٥٤٠-٤٨٠ ق.م)، حيث ركز على استخدام الطبيعة
وتسخيرها لخدمة الإنسان، وعرف بأسلوبه الغامض في الكتابة؛ إذ "كان يتكلم
بالتشبيهات، ولا يعنى بوضوح مقصوده"، ثم تطورت البراغماتية بعده ونشأت كمذهب
عملي في الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين، وقد وجدت في النظام
الرأسمالي الحر الذي يقوم على المنافسة الفردية خير تربة للنمو والازدهار. ومن أهم
أعلامها: (وأغلبهم من الأمريكيين): تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤م)، ويليام جيمس
(١٨٤٢-١٩١٠م)، جون ديوي (١٨٥٨-١٩٥٢م)، ومن أهم أفكارها: أن الاعتقاد
الديني لا يخضع للبيئات العقلية، والتناول التجريبي الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان
والمجتمع - أن العقل جعل أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمته تفسير
عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العلمية الواقعية - النشاط الإنساني =

مفهوم التجربة

تختلف في مضمونها ومرتكزاتها الرئيسية عن الفلسفة التقليدية^(١)، فقد أخذت منحى مجافياً تماماً ومختلفاً بشكل جذري عنها، وشرعت في إطلاق أطروحات جديدة تماماً تتعلق بالعقل وعمله، والنظر إلى الخير والشر والصواب والخطأ، ورفضت النظرات الكلاسيكية لتلك القيم، واعتبرت أن العقل لا يمكنه بلوغ غايته ولا يمكنه قيادة صاحبه إلى الصواب إلا من خلال العمل الناجح، فالأفكار الصحيحة هي الناجحة، والصحة تتوقف على النجاح، والخير هو ما يحقق

له وجهتان: فهو عقل، وهو إرادة، ونموه كعقل ينتج العلم، وحين يتحقق كإرادة يتوجه نحو الدين، فالصلة بين العلم والدين ترد إلى الصلة بين العقل والإرادة. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: إشراف/ مانع الجهني، (٨٣٢/٢) وما بعدها)، ط ٤، ١٤٢٠هـ، دار الندوة العالمية، الرياض - السعودية، موسوعة السياسية: عبد الوهاب الكيالي (٧٦٧/٢) ط المؤسسة العربية للدراسات، بيروت. موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي (٥٣٣/٢)، ط ١، ١٩٨٤م، المؤسسة العربية، بيروت. المعجم الفلسفي (ص ٣٢)، مجمع اللغات العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع.

(١) الفلسفة التقليدية: وهي التي تضم العديد من الفلسفات الأخرى، كالفلسفة المثالية التي أسسها أفلاطون، والتي تعد أقدم أنواع الفلسفات التي عرفها التاريخ، ومن أهم أعلامها: ديكارت، وكانط، وهيغل، ومن أهم أفكارها: أن الروح هي جوهر الحقيقة، والروح لا تستطيع أن تدرك نفسها إلا في علاقتها بعنصر مادي - أن الأرواح هي الفاعل وهي التي تملك إرادة- أن الأشياء الطبيعية التي لا يدركها الإنسان موجودة في علم الله، أما النوع الثاني من الفلسفة التقليدية فهو: الفلسفة الواقعية الطبيعية، التي أسسها أرسطو أحد تلاميذ أفلاطون، بعد أن ثار عليه وأكد أهمية الحواس إلى جانب العقل، ومن أهم أعلامها المحدثين: فرانسيس بيكون، وجون لوك، ومن أهم أفكارها أنها تتفق مع الواقعية النقدية في جميع آرائها وأفكارها وتزيد عليها: التأثر بالنظريات العلمية والدعوة إلى تطبيقها في مجال العمل الأدبي- أن الإنسان في نظرها حيوان تسيره غرائزه، وكل شيء فيه يمكن تحليله، فحياته الشعورية والفكرية والجسمية ترجع إلى إفرازات غدديّة. انظر: الموسوعة الميسرة (٧٩٣/٢-٧٩٧، ٨١٥، ٨٧٤) بتصرف.

د. زياد بن عبد الله الحمام

الرغبات والرضا والحاجة، وكذا كل قيمة بما فيها التدين والاعتقاد. والمحدد الرئيس لهذا النجاح هو التجربة التي تعد المحور الذي يبنى عليه سائر ما سبق.

أهمية البحث:

تظهر أهمية هذا البحث في أنه يتناول نقد مفهوم التجربة عند ويليام جيمس وآثاره من منظور إسلامي؛ حيث يعد جيمس أحد الرواد المطورين للفلسفة البراغماتية، بل وأحد الباعثين لها من جديد بعد أن خفت نجمها لما يقارب عشرين عاماً كما يقول هو شخصياً في كتابه البراغماتية: «ولقد ظل هذا المبدأ -أي مبدأ البراغماتية- مهملًا تمامًا زهاء عشرين عاماً ولم يحفل به أحد، حتى قدر لي أن أبعثه من مرقدته وأخرجه ثانياً إلى حيّز الوجود»^(١)، وقد أثر مفهوم التجربة لديه على موقفه من العقل والفطرة والأخلاق والدين، وامتد هذا الأثر إلى بعض الفلسفات المادية الحديثة، والمذاهب الداعية للإلحاد، القائلة بنفي الإله، ونحو ذلك.

أهداف البحث:

أولاً: الوقوف على أبعاد الفلسفة البراغماتية التي تبلورت في مفهوم التجربة عند ويليام جيمس.

ثانياً: رغبة الباحث في الولوج إلى معترك الفلسفات الغربية للوقوف على أبعاد المؤثرات الفلسفية في حياة الأفراد والمجتمعات الغربية.

ثالثاً: بيان آثار مفهوم التجربة عند جيمس على العقل والفطرة، والأخلاق، والدين، ونقدها من منظور إسلامي.

رابعاً: نقد الأفكار الفلسفية الغربية التي أسهمت بشكل كبير في انحراف الفكري الديني لدى الغرب.

(١) البراغماتية، ويليام جيمس، ترجمة: محمد العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م: (ص ٦٦).

مفهوم التجربة

خامساً: بيان الموقف الإسلامي الصحيح من تلك المورثات الفلسفية والثقافات الإلحادية.

منهج البحث:

تم إنجاز هذا البحث وفق المنهج الاستقرائي والاستنباطي والنقدي.

خطة البحث:

يحتوي هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

-مقدمة: اشتملت على: أهمية البحث، وأهداف البحث، ومنهج البحث، ومحتواه.

-التمهيد: وفيه مطلبان:

الأول: مفهوم التجربة في الفكر الغربي الحديث.

الثاني: التعريف بويليام جيمس.

-المبحث الأول: مفهوم التجربة عند ويليام جيمس، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعاني والدلالات.

المطلب الثاني: التجربة بين الفكر والواقع.

-المبحث الثاني: آثار مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على العقل والفترة،

والأخلاق، والدين.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على العقل

والفترة.

المطلب الثاني: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على الأخلاق.

المطلب الثالث: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على الدين.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث.

فهرس المراجع.

التمهيد

المطلب الأول: مفهوم التجربة في الفكر الغربي الحديث

يهدف العلماء كلٌّ في مجال تخصصه إلى فهم الظواهر الطبيعية التي تتصل بمادته العلمية، ويعتمد هذا الفهم على تجميع الحقائق والربط بينها بصورة منطقية متسقة على شكل نظرية علمية تحتوي كل الحقائق وتبين ما بينها من علاقات، وتسمح باستنتاج علاقات أخرى لم يتم الكشف عنها. فمن الحقائق المعروفة مثلاً في علم النفس أنه باستخدام اختبارات الذكاء وُجد أن المكفوفين والصمّ أقلّ ذكاءً على وجه العموم من غيرهم، ولو ترك الأمر للتعليق السريع لكانت النتيجة مختلفة؛ حيث يسود الاعتقاد خطأ بأن المكفوفين أذكى من العاديين ربما متأثراً بأحد نوابع المكفوفين، ولكن البحوث أثبتت عكس ذلك، ويمكن الوصول عن طريق الدراسات إلى أن فقد الحاسة مسؤول عن انخفاض الذكاء، فربط النتائج بعضها ببعض يؤسس النظرية، وعلى ضوءها يمكن استنتاج علاقات أخرى خاضعة للدراسة، وهذه العلاقات والارتباطات لا يمكن فهمها إلا من خلال الوصف والتفسير، وهنا تظهر أهمية التجربة والتي تمثل الأداة الأبرز لتحقيق الفهم من خلال وصف الظاهرة وتفسيرها^(١).

فالتجربة هي فحص الفكرة ووضعها موضع الاختبار بواسطة الظواهر، هذا الفحص للفكرة التي قدمت كفرض لتفسير الظاهرة، أو العلاقات التي تحكم أجزاء الظاهرة بعضها ببعض، أو تحكم العلاقات بين الظاهرة المدروسة وبين

(١) ينظر: علم النفس التجريبي، د/ السيد محمد خيرى، ومحمد محمود الزيايدي وآخرون، مطبوعات جامعة الرياض، قسم علم النفس، (ص ١٧).

مفهوم التجربة

الظواهر الأخرى، وذلك من خلال ظروف يمكن التحكم فيها لا توفرها الظواهر الطبيعية قصداً إليها لتسجيل نتائج التعرض لها.

وعلى ذلك يكون المقصود بالتجربة التحقق من أن الروابط التي يعبر عنها الفرض موجودة فعلاً في الظاهرة المدروسة، وذلك بتعريضها لظروف يمكن التحكم فيها.

فالتجربة وفق هذا المنظور-إيجابية- وليست سلبية كما هو الحال في الملاحظة، التي يكتفي الباحث فيها إلى الاستماع بما تبوح به الطبيعة، وهو يتلقى منها المعلومات دون أي مبرر سوى هذا التلقي.

أما في التجربة فهو يسأل الطبيعة أو الظاهرة سؤالاً محدداً ويريد الإجابة عنه؛ حيث نراه يعدل الظاهرة وينوع تجاربه عن طريق بعض الظروف المصطنعة، حتى يتأكد بأن ما أجابت عنه الظاهرة، هي إجابة محددة ومقنعة عن السؤال^(١).

ويمكن التفرقة بين التجربة بهذا المعنى العلمي والتجربة بمفهومها العام، فالثانية هي الخبرة الإنسانية المكتسبة نتيجة احتكاك الناس بالواقع، والتي تشمل جميع مناحي الحياة، وتتميز بالعفوية والمباشرة، ويتداخل فيها الحسي بالعاطفي بالعقلي.

جدير بالذكر أن مفهوم التجربة في العالم الغربي كان يتسم بالتطور والتغيير، ففي الوقت الذي يقرر فيه بعض الفلاسفة أن العقل هو مصدر التجربة والمعرفة، وجدنا فريقاً آخر يتبنى القول بأن التجربة أو الخبرة الحسية هي مصدر المعرفة، وأنكروا المعارف أو المبادئ عقلية سابقة على التجربة، وجاء على رأس التجريبيين المحدثين "جون لوك" الذي رفض قول "ديكارت" بالأفكار

(١) ينظر: خطوات المنهج التجريبي، د/ سالم العماري، مجلة التربية، الجامعة الأسمرية، العدد ٣، ٢٠١٧م، (ص ٥٤).

د . زياد بن عبد الله الحمام

الفطرية، وذهب إلى أن عقل الإنسان يولد صفحة بيضاء لم يكتب عليها شيء، وأن التجربة الحسية هي التي تخط سطورها على هذه الصفحة البيضاء^(١)، أما البراغماتية فإنها تقوم على التمييز بين أمرين؛ هما: معرفة الشيء قبل معرفته بما هو عليه، وبين فلسفة معرفة الشيء من حيث هي البحث عما هو أعمق في شكلها الواقعي، ومن هنا يكون مشروع البراغماتية هو مدار نظرية المعنى أو مبادئ البراغماتية؛ إذ إن كل حقيقة مرتبطة بزمانها وشروطها كأداة لبقاء المعارف والتصورات عن طريق صياغة الفكرة كبنية شعورية وفكرية^(٢).

ومما لا شك فيه أن الحواس وسيلة ضرورية للمعرفة والتجربة، فالأعمى لن يدرك الألوان مهما وصفنا له ذلك، لكن هذا لا يمنع قصور الحواس عندما يتعلق الأمر بقضية الحرية، الخير، العدالة، الحق، هذه القضايا يستحيل إنكارها لمجرد أن حواسنا لا تدركها، وهنا فإن العقل وسيلة لا تقل ضرورة للمعرفة من الحواس، لكن الحواس والعقل لا يمنعان حدوث الحدس، فالمسألة إذن ليست تبني أداة وإنكار غيرها، ولكن في استخدام الأداة حيث يجب أن تستخدم.

وقد ظهر المنهج التجريبي في صيغته الكلاسيكية مع العالم الفرنسي كلود برنار (١٨١٣-١٨٧٨م) الذي استفاد من التراكم العلمي والمنهجي الذي خلفه غالي لي ونيوتن وبيكون وستوارت ميل؛ حيث وضع كلود برنار قواعد المنهج التجريبي في خطوات هي:

-**الملاحظة:** هي أول خطوة منهجية في عمل العالم، تختلف عن الملاحظة العادية لكونها لا تعتمد على العين المجردة إلا في حدود ضيقة جداً، وتكون في أغلب الأحيان مجهزة بآلات وأدوات علمية، ويشترط في الملاحظة أن تكون

(١) آلام العقل الغربي: رينشارد تارناس، ترجمة: فاضل جكتر، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، مكتبة العبيكان - السعودية، (ص ٤١١).

(٢) المنهج الفلسفي عند ويليام جيمس، سفيان البطل، ٢٠١٦م، ط مؤسسة مؤمنون بلا حدود، (ص ٢).

مفهوم التجربة

موضوعية مرتبطة بالظاهرة المدروسة بعيداً عن رغبات وميولات الملاحظ الذي يجب أن يكون كآلة تصوير تنقل بالضبط ما هو موجود في الطبيعة؛ حيث يجب أن يلاحظ دون أي فكرة مسبقة. كما يشترط في نجاح الملاحظة أن يجمع الباحث ملاحظات تتسم بسمتين هما: الدقة والكفاية.

-**الفرضية:** هي فكرة مؤقتة يقترحها العالم لتفسير ظاهرة معينة، وتشكل استدلالاً عقلياً ينطلق من الملاحظة ويقود إلى التجربة، فإذا أكدت التجربة صحة الفرضية أصبحت قانوناً، وإذا تبين خطأها استبدلت بفرضية أخرى، ويشترط في الفرضية أن تكون قابلة للتحقق التجريبي ونابعة من الظواهر المدروسة ولا تتناقض مع ذاتها.

التجريب: هو الخطوة الثالثة من خطوات المنهج التجريبي، يقوم فيها العالم بالتدخل في الظاهرة المدروسة، أو يصطنعها في المختبر بتوفير شروطها الأساسية، وعزلها عن العوامل والمتغيرات الأخرى، من أجل تحديد طبيعة العلاقات بين الظواهر المتداخلة في إنتاج الظاهرة المدروسة.

ولإضفاء طابع الحتمية والضرورة على نتائج التجربة، يشترط فيها أن تكون قابلة للتكرار كلما توفرت الشروط المخبرية نفسها، ويتحقق فيها مفهوم العزل كي يتم التمييز بين عوامل الظاهرة المدروسة وغيرها، وإمكانية التحكم في الشروط التي تحدثها وإدخال شروط جديدة، كما ينبغي أن تكون نتائج التجربة قابلة للتعميم على ظواهر من نفس النوع وتنتج في نفس الظروف^(١).

(١) ينظر: مناهج البحث في علم النفس، د/ حلمي المليجي، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، (ص ٢١). ويلحظ هنا تقديمه خطوة الفرضية على خطوة التجريب، وهذا خطأ لأن الفرض العلمي يتأسس على معطيات الملاحظة ونتائج التجربة، كما أنه لم يذكر الخطوة الرابعة، وهي: التحقق من صدق الفرضية على أرض الواقع، لتصبح حقيقة علمية إذا ثبت صدقها.

د . زياد بن عبد الله الحمام

ويعتبر المنهج التجريبي من أكثر مناهج البحث العلمي كفاءة ودقة، وهذا يرتبط بمجموعة من المميزات التي يتمتع بها هذا المنهج منها:

-دقة النتائج التي يمكن التوصل إليها بتطبيق هذا المنهج، فتعامل الباحث مع عامل واحد وتثبيت العوامل الأخرى يساعده في اكتشاف العلاقات السببية بين المتغيرات بسرعة ودقة أكثر مما لو حدث التجريب في ظل شروط لا يمكن التحكم بها.

-يسمح بتكرار التجربة في ظل نفس الظروف، مما يساعد على تكرارها من قبل الباحث نفسه أو باحثين آخرين للتأكد من صحة النتائج.

-إمكانية استخدام البحوث التجريبية للتنبؤ بما سيحدث مستقبلاً من الظواهر^(١).

هذا وقد قام بتنمية التجريبية مجموعة متعاقبة من الفلاسفة البريطانيين بصفة خاصة، من أهمهم: لوك، وباركلي، وهيوم، وجون ستورات مل، ذلك أن التجريبية لم تتمكن قط من القارة الأوروبية على الرغم من أن حركات فلسفية من قبيل حركة الموسوعيين في فرنسا^(٢) كانت تستلهم أفكاراً تجريبية، هذا بينما

(١) ينظر: المنهج التجريبي، د/ محمد المبعوث، جامعة الملك سعود، كلية العلوم الاجتماعية، ١٤٣٤هـ (ص ٢٧).

(٢) يعد الموسوعيون الفرنسيون أبرز من مثّل حركة التنوير في فرنسا خاصة، وفي أوروبا عامة، وشكلت حركتهم القاعدة الثقافية لاندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، التي غيرت وجه أوروبا وألقت آثارها التحريرية والفكرية والاجتماعية على العالم أجمع. انظر: في مواجهة التخلف من أجل هيكل عربي شامل، علاء الدين صادق الأعرجي، إصدارات: إي-كتب، لندن، ٢٠١٦م، (ص ٦٣).

مفهوم التجربة

كانت التجريبية في بريطانيا هي التقليد السائد في الفلسفة منذ القرن السابع عشر^(١).

المطلب الثاني: التعريف بويليام جيمس^(٢)

يعد ويليام جيمس واحدًا من أشهر علماء النزعة الإنسانية وأعظم رواد الفلسفة الغربية الحديثة؛ حيث ولد بمدينة نيويورك في الحادي عشر من شهر يناير عام ١٨٤٢م، لعائلة دينية معروفة ذات أصول أيرلندية أصابت حظًا من الثراء، وصرفت وقتها للقراءة والاطلاع والسفر والرحلات، حيث انتقلت أسرته إلى أوروبا للاستقرار، وهناك تنقل في العديد من المدن الأوروبية الكبرى منها لندن وباريس وبرلين، تلقى بعض التعليم في معاهد فرنسا الخاصة ودخل الكلية في سويسرا، واستطاع أن يطور هناك اهتماماته في الرسم والعلوم، ثم عاد جيمس إلى الولايات المتحدة عام ١٨٦١م، وفي هذا التاريخ بدأت حياة جيمس العلمية؛ حيث دخل مدرسة لورنس العلمية لجامعة هارفارد، ليدرس الطب عام ١٨٦٤م، وخلال الفترة الدراسية كان ويليام قد عانى من أزمات نفسية، وأصيب بحالة من الاكتئاب دفعته إلى التفكير عمليًا بالانتحار فأقدم عليه في خريف عام ١٨٦٦م، لكنه تماسك بعض الشيء فسافر عام ١٨٦٧م إلى برلين لرحلة علاجية، استطاع خلالها أن يطالع الدراسات الفلسفية، وعلم النفس والفسولوجي لكل من (كانط وليسينج وجوته وشيلر ورينان ورينوفير)، كما استطاع أن يتم دراسة الطب ليحصل على شهادة الدكتوراه في الطب عام ١٨٦٨م، لكن آثار

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة: زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت - لبنان، (ص ١٥٠).

(٢) انظر: ويليام جيمس، محمد فتحي الشنيطي، مكتب القاهرة الحديثة، القاهرة (ص ٩-٢١)، والأخلاق والدين بين ويليام جيمس وجون ديوي، نبراس زكي خليل، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م، (ص ٢٢)، ومعجم الفلاسفة: جورج طرابيشي، ط ٣، ٢٠٠٦م، دار الطليعة، بيروت، (ص ٢٦٦-٢٦٨) بتصرف واختصار.

د. زياد بن عبد الله الحمام

الاكتئاب الشديد الذي عانى منه فترة طويلة، وتدهور حالته الصحية دفعاه إلى العزوف عن مزاولة الطب ولم يمارسه أبدًا، فعرض عليه رئيس الجامعة أن يقوم بتدريس علم الفسيولوجيا المقارنة، وعلم التشريح فقبل، لكنه كان يؤجل التدريس لمدة عام سافر خلالها إلى أوربا، ثم عاد وأسس أول مختبر لتدريس علم النفس في أمريكا ١٨٧٤م، ومنذ ذلك التاريخ بدأت رحلة ويليام جيمس في دراسات علم النفس، فكتب العديد من المقالات، ونشر الكثير من البحوث، وقام بتدريس علم النفس والفلسفة والمنطق والأخلاقيات والفلسفة التجريبية والبحوث النفسية في جامعة هارفارد، وفي عام ١٨٨٩م بدأ جيمس يعرف نفسه بأنه براغماتي في "المفاهيم الفلسفية والنتائج العلمية"، واستطاع من خلاله محاضراته أن ينشر العديد من أفكاره وآرائه واعتقاداته في العديد من الجامعات والمحافل العلمية والدولية، وكان آخر ما نشره "التعدد الروحاني" في مجلة هيبيرت، ثم أصيب ببعض المشاكل الصحية القلبية التي منعتة عن إتمام مشاريعه العلمية حتى توفي ١٩١٢م متأثرًا بمرضه.

لقد استطاع جيمس خلال رحلته العلمية أن يقدم العديد من المؤلفات والكتب التي ساهمت بشكل كبير في علم الإرادة، وعلم النفس عامة، وعلم النفس التربوي والديني بصفة خاصة، ولعل من أبرزها: "مبادئ علم النفس" الذي نشر (١٨٩٠م) والذي ذاع صيته في الأوساط العلمية فأكسبه شهرة عالمية، وكذلك مقالته "إرادة الاعتقاد ومقالات أخرى في الفلسفة الشعبية" التي نشرها (١٨٧٩م) من أهم الرسائل التي دونها، وتمت ترجمتها إلى العربية، ويضاف إليها أيضًا: "البراغماتية (١٩٠٧م)"، "العقل والدين"، "مقالات في التجريبية المتطرفة (١٩١٢م)"^(١)، وتتبلور الفكرة الرئيسة في فلسفة "ويليام" في ذات الفكرة

(١) انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ط١، ٢٠١٠م، المكتبة العصرية، وبيروت، (١٢٩٣/٣).

مفهوم التجربة

الأساسية عند رواد المدرسة البراغماتية، وذلك من خلال تحديد مفهوم "المعنى"، وهو أن ما يجعل للعبارة "معنى" كونها ذات نتائج علمية تترتب على تنفيذها، أما إذا كانت أمامك عبارة لا تدري كيف تحولها إلى تجربة حسية تحسها بحواسك، كانت تلك العبارة بغير "معنى"، ومن زعم أنه يفهم لها "معنى" فهو مخدوع^(١).

* *

(١) من زاوية فلسفية: زكي نجيب محمود، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، دار الشروق، القاهرة - مصر، (ص٢١٣).

المبحث الأول

مفهوم التجربة عند ويليام جيمس

المطلب الأول: المعاني والدلالات

متَّلت التجربة الدور الأبرز والأكبر في تطوير مشروع البراجماتية عند ويليام جيمس، والتي تعني أحداث الواقع الراهن، في حين الخبرة هي المعطيات المؤسَّسة على معارف قديمة، والذي يجمع بينهما هو الماهية في إدراك وحدة العالم ووجوده، كل ذلك من شأنه أن يؤكد أن البراغماتية تنبني على تعدد الأنماط للعالم، فالعالم أجزاء متعددة تحتاج إلى فرضية البراغماتية التي تقول: إن المعرفة لا تنمو من لا شيء، بل على العكس من ذلك فالماضي كائن في الحاضر، وهذا دليل على تفاعل أجزاء العالم في إطار تصور البداهة الحقيقية وتقريبهما بأساليب عقلانية ملائمة^(١).

وتتسم المعاني والدلالات في فلسفة جيمس بالذاتية والفردية إلى حد كبير، حتى أنه يرجع الصدام التاريخي بين الفلاسفة للمزاج الإنساني، فيقول: «إن تاريخ الفلسفة إلى درجة كبيرة هو تاريخ تصادم معين لأمزجة إنسانية»^(٢). ثم يبين جيمس طريقة عمل الفيلسوف في ضوء هذه القاعدة، فيقول: «وأيًّا ما يكن مزاج الفيلسوف المحترف فإنه يحاول عندما يتفلسف أن يوارى حقيقة مزاجه ويسترها، فالمزاج ليس من دواعي التعقل التي يعترف بها العرف الدارج، ومن ثم فهو يدفع بأسباب غير شخصية لتسوية استنتاجاته فحسب، بيد

(١) ينظر: المنهج الفلسفي عند ويليام جيمس، سفيان البطل، مركز دراسات مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٦م، (ص ٤).

(٢) البراغماتية، ويليام جيمس، ترجمة: محمد العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م، (ص ١٩).

مفهوم التجربة

أن مزاجه يعطيه حقًا تحاملاً وانحيازًا أقوى من أي فرض من فروضه الأكثر موضوعية»^(١).

وجيمس حينما يرجع الخلافات الفلسفية إلى الحالة المزاجية للفيلسوف، وتجربته الذاتية لا يستثني من ذلك أكبر فلاسفة التاريخ، ولا يخص ذلك بمرحلة زمنية محددة، بل إن الفلاسفة على مر العصور أفلاطون وهيجل ولوك وسبنسر من الفلاسفة المزاجيين - على حد تعبير ويليام جيمس - ونحن لما كان مزاجنا العقلي غير محدد فإننا ننتهي في آخر المطاف باتباع أحد تلك الفلسفات في النهاية، يقول جيمس: «ونحن لا نكاد نعرف تفضيلاتنا الذاتية في المسائل التجريدية وبعضنا يعدل عنها بسهولة وينتهي باتباع الطراز السائد أو الانسياق وراء معتقدات أكثر الفلاسفة وزناً وتأثيراً في الجيرة التي نعيش فيها أيًا ما كان هذا الفيلسوف»^(٢).

كل ذلك جعل من التجربة مناطاً رئيساً لتشكيل الفكر والاعتقاد عند جيمس، فالتجربة في نظر ويليام جيمس هي كل ما هو موجود، فلا توجد أشياء عامة لأي تجربة ككل موحدة أو مركبة، بل هناك أشياء عديدة كما هي طبيعة في الأشياء من ذوات الخبرة.

فالتجربة هي فقط اسم موحّد لكل هذه الطبيعة المعقولة، وتجربة الشخص هي كل ما وافق العلاقة مع شيء ما وارتبط به فشكّل نوعاً من التجربة لمعرفة هذه العناصر التي ألاحظ تشكلها في ذهني - بدون أي مصلحة انتقائية...، وحياتنا كلها هي عبارة عن كتلة من العادات عملياً وعاطفياً وفكرياً نظمت

(١) ينظر: المرجع السابق، (ص ٢٠).

(٢) البراغمانية، ويليام جيمس، (ص ٢١).

د . زياد بن عبد الله الحمام

منهجياً من أجل سعادتنا ومحنتنا وتحملنا بشكل لا يقاوم نحو قدرنا، مهما يمكن أن يكون^(١).

فالتجربة الشعورية المحسوسة هي العلاج الحقيقي لكل مشكلة معرفية، ومن ثم نراه وقد اتخذ موقفاً رافضاً لكل تحليل عقلي. فيرى جيمس أنه بالرغم من أن غرائزنا تحتم علينا أن نكون من رجال المذهب المطلق، إلا أنه يجب علينا عندما نكون فلاسفة أن نعتبر هذه الحقيقة حالة ضعف في طبيعتنا، ويجب أن نعالج أنفسنا منها بقدر الإمكان.

ولهذا يقول جيمس: لذلك ارتضيت فيما يتعلق بنظرية المعرفة، المذهب التجريبي، وأمنت بنظرية علمية، وهي أنه يجب علينا أن نسير في تجاربنا ونمضي في تفكيرنا حول هذه التجارب؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل، ولكن أن تصر على أن نظرية من تلك النظريات - أي نظرية كانت - حق لا يقبل الإبطال أو الشك، فذلك على ما أعتقد خطأ عظيم. فليس هناك يقين لا يعتريه شك إلا حقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي لم تقدر فلسفة الشك نفسها أن تهدمها، ألا وهي وجود ظاهرة الشعور. وتلك النقطة الجرداء التي تبدأ منها المعرفة، وهي اعتراف بموضوع يتفلسف الإنسان حوله، وليست الفلسفات المتعددة بعد ذلك إلا محاورات شتى للتعبير عن حقيقة هذا الموضوع^(٢).

فالذي يجعل أي شيء ذا معنى هو فهمه في ضوء خبرة وتجربة حسية، وهذه هي الفكرة الرئيسية في فلسفة جيمس، وهي نفسها الفكرة الرئيسية عند

(١) ينظر: طبيعة التجربة الدينية في فلسفة ويليام جيمس، شولبهافات بورياكو شاروين،

ترجمة: سفيان البطل، مركز نماء للبحوث والدراسات، (ص ٥).

(٢) ينظر: د/ أكرم محمد، مقال له:

<http://www.flsafa.com/٢٠١٦/١١/jamesknowledge.html>

مفهوم التجربة

أنصار الفلسفة البراغماتية، ألا وهي الفكرة الخاصة بتحديد مفهوم «المعنى». فالذي يجعل عبارة ذات «معنى» على الإطلاق هو كونها ذات نتائج عملية تترتب على تنفيذها، أما إذا كانت أمامك عبارة لا تدري كيف تحولها إلى تجربة عملية تحسبها بحواسك، كانت تلك العبارة بغير معنى، ومن زعم أنه يفهم لها معنى كان مهوشاً مخدوعاً. وأنه لمن حسن الحظ أن الناس في حياتهم العملية وفي حياتهم العلمية على السواء إنما يجرون في التفاهم على هذا الأساس نفسه، فإذا قلت لي مثلاً: «في هذا الطبق شواء» فهمت لقولك معنى؛ لأنني أعلم بخبرتي الحسية السابقة طبيعة الإحساسات التي تتأثر بها أعضاء الحس من شم وطعم، بل من بصر ولمس، عندما يكون الشيء لحمًا مشويًا، وكذلك في الحياة العلمية حينما يقول عالم لزميله العالم: «إن في هذه الأنبوبة غازًا قابلاً للاشتعال»، فيفهم الزميل كلام زميله؛ لأن وراء كل كلمة من هذه الكلمات رصيّدًا من خبرة حسية سابقة، على ضوءها يفهم المراد^(١).

ومن أجل ذلك يحث ويليام جيمس على معرفة فلسفة الشيء، قبل معرفته هو بما هو عليه في الحقيقة، ذلك أن الفرق بين معرفة الشيء بما هو عليه فيه دعوى بالأخذ به كنتيجة وكمعطى جاهز، ومن ثمّ فإن تبني الأفكار سيكون إعادة فحص فحواها ومعرفة مدى قابليتها لخدمة الواقع، لكن بمعرفة فلسفة الشيء فأنت تبحث فيما هو أعمق، أي في الشيء القابل لأن يقدم لنا معرفة في شكلها البنائي والتحليلي والواقعي، هذا الأمر هو ما سيمدنا بالقدرة على استيعابها واستيعاب ظروف إنتاجها لتكون ممكنة التصديق والتطبيق لحد ما، ومن ثمّ كانت قيمة البراغماتية في بحثها في المعنى وفي الحقيقة^(٢).

(١) من زاوية فلسفية: زكي نجيب محمود، (ص ٢١٣)، مرجع سابق.

(٢) ينظر: المنهج الفلسفي عند ويليام جيمس، (ص ٤).

المطلب الثاني: التجربة بين الفكر والواقع

التجربة في نظر جيمس والمذهب التجريبي تمثل أغنى وأخصب العناصر التي يمكن من خلالها إنشاء صلة وثيقة بين الفكر والواقع والحقائق.^(١) حيث يرى جيمس أنه من المطلوب أن نعتقد التسليم بأن هناك حقيقة أو صدقاً، وبأن عقولنا تقدر على أن تصل إليها وأن تتركها. ومن هنا يرفض موقف الشاك الذي لا يعتقد بذلك ولكن الاعتقاد في وجود الصدق وفي إمكان أن تدركه العقول يتجه إلى طريقتين:

طريق المذهب المطلق الذي يرى أنه في إمكاننا إدراك الحقيقة والصدق كما هي، وفوق هذا في إمكاننا معرفة أننا وصلنا إلى الصدق أو الحقيقة. والآخر طريق المذهب التجريبي الذي يرى أن هناك فرقاً بين المعرفة وبين إمكان المعرفة، والذي نستطيع الوصول إليه إنما هو إمكان معرفة الحقيقة دون معرفة أننا قد وصلنا إليها^(٢).

فالواقع يقتضي أن يكون الحق هو النافع، وليس معنى مجرداً مطلقاً، والتجربة التي يختبر بها الإنسان الأفكار والمعتقدات التي تكون خبراته يمكن التوصل من خلالها بأن النتائج الإيجابية النافعة هي التي تمثل الحق، فليس الحق كياناً مجرداً قائماً بذاته، كذلك الحق الذي ظل يبحث عنه الفلاسفة والمتصوفة قرونًا، بل ليس الحق صفة تصف الجملة الصحيحة في ذاتها حتى ولو لم يكن لها انطباق على واقع، بل الحق هو طريقة عمل، هو طريقة أداء من شأنها أن تنجز أمرًا وأن تحقق هدفًا. والجملة التي لا يمكن جعلها سلاحًا في يدك تشق به هذا الطريق أو ذاك، هي جملة باطلة هذا على فرض أنها جملة ذات معنى مفهوم. وهكذا تصبح كلمة الحق وكلمة النفع مترادفتين، فنقول

(١) ينظر: البرغماتية، ويليام جيمس، (ص ٥١).

(٢) ينظر: د/ أكرم مطلق محمد، مقال له:

مفهوم التجربة

عن فكرة إنها نافعة لأنها حق، أو إنها حق لأنها نافعة. والقولان في المعنى سواء؛ لأنهما في طريقة التنفيذ التجريبي سواء.

وفي هذا الصدد يقول جيمس تشبيهه المشهور وهو أن الجملة المعنية من حيث كونها حقا أو باطلاً، هي كالعملة النقدية من حيث كونها صحيحة أو زائفة، فالعملة النقدية صحيحة ما دامت مقبولة في التبادل التجاري، فإذا ما اعترض عليها معترض ذات يوم بحيث بطل استعمالها في البيع والشراء أصبحت زائفة منذ ذلك التاريخ، وكذلك القول المعين يظل صحيحاً ما دامت له قيمة فورية، أي ما دامت له نتائج عملية تحقق الأهداف المنشودة حتى إذا ما أخذ يتعثر في التطبيق بدأ بطلانه، وقد يظل إلى الأبد ناجحاً في التنفيذ فيظل إلى الأبد قولاً حقاً أو صادقاً^(١).

فالفيلسوف ويليام جيمس ينظر إلى الواقع بوصفه المؤثر الأبرز في التطور العقلي، وأن المخزون العقلي ما هو إلا تجارب متذكّرة، فالتجربة الواقعية هي في حقيقة الأمر وحدة التطور الفكري والعقلي.

يقول جيمس شارحاً ذلك: «فنحن نعلم جميعاً أن مقداراً كبيراً من مخزوناتنا العقلية ليس إلا تجارب متذكّرة، وليس مشاكل ميرهننا عليها، ومن تلك التجارب كل عاداتنا ومعلوماتنا التي يرتبط بعضها ببعض بسبب المجاورة، ومنها أيضاً تلك النظريات الذهنية التي تعلمناها في الصغر مع اللغات التي ولدنا فيها، وعلاوة على كل هذا فهناك من الأسباب ما يجعلنا نظن أن نظام الروابط الخارجية الذي يجربه الأفراد هو الذي يحدد النظام الذي يلاحظ العقل على منواله الصفات المتضمنة ويستخلصها، وإن السرور والمصالح التي يسببها جزء من البيئة والمضار والآلام متى يسببها جزء آخر منها تحدد كذلك من

(١) من زاوية فلسفية: زكي نجيب محمود، ص ٢١٤، وما بعدها، مرجع سابق.

د . زياد بن عبد الله الحمام

اتجاه الانتباه وعلى هذا الأساس تتكون النقطة التي نبدأ عندها في جمع تجاربنا العقلية»^(١).

وعندما يطلق جيمس مصطلح التجريبي فإنه يعني به من يحب الحقائق التي خضعت للاختبار، وأما العقلي فهو من يهتم بالمبادئ العامة والصور المجردة أكثر من أي شيء آخر، وما دام الإنسان لا يعيش بدون المبادئ والوقائع فالخلاف الذي يدور بين هذين المذهبيين هو فقط في مركز الاهتمام. وبالتالي يكون القصد أن كلاً من العقلي والتجريبي يتناولان موضوعات الوجود انطلاقاً يمدنا به العقل وما استوحاه من الخارج، ولهذا المعنى الاختلافي مأل واحد هو أنه ذو طبيعة مزاجية.

لذلك يقول جيمس: وليس ثمة سبب يدعونا لافتراض أن هذه الرؤية المزاجية القوية لن يكون لها وزن ولا حساب من الآن فصاعداً في تاريخ عقائد الإنسان. هكذا نخلص إلى أن العالم واحد ومتعدد؛ الأمر ينطوي فقط على الطريقة التي ننظر بها إليه، لكن يجب ألا نجعل من هذا سبباً للمزج بين المتناقضات، حتى وإن كانت، لأن التناقض والتضاد وجد ليكون^(٢).

فاهتمام جيمس بالنتائج يدل على كون الاعتقاد بوجود الله يجلب نتائج مرضية تُساعد الإنسان على تحسين وضعيته الواقعية من جهة، وارتقائه بحالته النفسية من جهة أخرى؛ فشعور الإنسان بالراحة لا يعد نتاجاً للإيمان في حد ذاته، بل يعد نتيجة لارتباط الاعتقاد بالعمل والسلوك. ويتجلى الجانب العملي في الواقع الذي نعيش فيه، بحسبانه يبرز في التجربة الدينية لا تُشكل المعرفة النظرية والفكرية بذلك جوهرًا للتجربة الدينية، ما دامت التجارب الدينية تتعدد

(١) ينظر: إرادة الاعتقاد، ويليام جيمس، ترجمة: محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٤٦م، (ص ٦٤).

(٢) ينظر: المنهج الفلسفي عند ويليام جيمس، (ص ٨).

مفهوم التجربة

وتتنوع بتعدد الأفراد المتدينين داخل المجتمع. وتتضح واقعية جيمس المعادية للمثالية عبر تطرقه للتجربة الدينية باستخدامه منهجاً عملياً تعددياً، وجّه من خلاله نقدًا للتصورات الدينية التي تجعل الإنسان خاضعاً لضرورة واحدة، وتجعل العالم الذي نعيش فيه، والذي وُلدنا فيه، تابعاً لعالم آخر يتصف بالأفضلية^(١).

* *

(١) ينظر: فردانية التجربة الدينية، ويليام جيمس نموذجاً، هاجر محنيطو، قسم الدراسات الدينية، ٢٠١٤م، مقال منشور بمركز مؤمنون بلا حدود.

المبحث الثاني

آثار مفهوم التجربة عند ويليام جيمس

على العقل والفطرة والأخلاق والدين

المطلب الأول: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على العقل والفطرة

إن فلسفة التجربة عند ويليام جيمس ومفهومه لها قد أدّى به إلى ربط كبير بين العقل والعاطفة المجبول عليها الفرد فطرياً، وجعل كلا منهما طريقاً مستقلاً يستطيع الإنسان من خلاله أن يكون معتقداته وآراءه الجازمة، وقد سعى جيمس إلى التوفيق بين متطلبات الحياة الأخلاقية والدينية وبين قواعد العلم وأسس التفكير المنطقي والعقلي محاولاً في الوقت ذاته أن يحافظ على الإيمان بالإله وعلى حرية وإرادة الاعتقاد، وجعل هذا الموقف الديني التأليهي قوياً في مواجهة العقل والعلم والتفكير الحر.

ويمكن اختصار موقفه بأنه كان يروم بقاء وجود الإله كموضوع لاعتقاد بسيط لكنه اعتقاد مبرر بقوة وأن يكون موضوعاً لإيمان عقلي مصرح به ومشروع، مع الأخذ في الحسبان أن العواطف الدينية هي عبارة عن تجارب موجودة وكائنة، ويمكن تمييزها عن العديد من العواطف الملموسة الأخرى، لكن لا يوجد أساس لافتراض أية عاطفة دينية بسيطة ومجردة يمكن أن توجد كشعور أو نزوع عقلي يشكل عنصراً منعزلاً قائماً بذاته وحاضراً في كل التجارب الدينية دون استثناء^(١).

ومحاولة التوفيق هذه تنبع من أن جيمس لا يرى في العقل القدرة الإدراكية الشاملة، ويرى أنه يتسم بمحدودية تحول دون هذا الإدراك الشمولي، فيقول جيمس: «ولكن العقل الإنساني قد ركب على نحو مخالف لهذا النحو؛ إذ ليس له

(١) ينظر: الدين كتجربة والاعتقاد كإرادة عند ويليام جيمس، حمادي أنور، بحث قسم الفلسفة والدراسات الإنسانية، مؤسسة دراسات وأبحاث، ٢٠١٦م، (ص ٨).

مفهوم التجربة

من قدرة على تلك النظرة البديهية الشاملة، وتضطره محدوديته لأن يرى شيئين أو ثلاثة أشياء فحسب في اللحظة الواحدة، فإذا أراد أن ينظر نظرة شاملة فعليه أن يلجأ إلى الفكرة الذهنية العامة، ولكنه يبتعد حينئذ عن الحقائق الواقعية!... فالعقل الإنساني متحيز وجزئي بطبيعته ولا يكون ذا مقدرة وكفاية إلا بتخيره ما ينتبه إليه ويتركه كل ما عاداه بتضييقه وجهة نظره، وإلا توزعت قوته الضئيلة وضل في تفكيره. والذي يدعو المرء دائماً لأن يعمل لإرضاء غرائز حب الاستطلاع هو إرادة تحقيق بعض الأغراض الخاصة^(١).

وإذا كانت هذه نظرة جيمس للعقل، فكذلك العاطفة، وإن كان لها تأثير بارز، إلا أنه ينكر أن يكون جوهر الإيمان العاطفة؛ لأنه يرى أنه لا وجود لعاطفة يقال لها عاطفة دينية، بل لا يوجد أساس لافتراض وجود انفعال ديني مجرد، إنما نجد مخزونات من الانفعالات، فهو ينظر إلى الانفعالات الدينية على أنها مجرد أمور نفسية لها وجودها وتتميز عن بقية الانفعالات المحسوسة الأخرى، وهي جميعاً حالات محسوسة للعقل قائمة على وجدان أولي متميز بذاته قائم لكل خبرة دينية بلا استثناء، وكي يبدو أنه ليس هناك انفعال ديني أولي وإنما خزين عام من الانفعالات قد تستدعيها موضوعات دينية لأننا لا نتصور إمكان وجود إثبات سلوك ديني أولي معين، يضاف إليه موضوع معين، ولكن الأساس لافتراض وجود انفعال بسيط كوجدان عقلي مثل الحب الديني أو الخوف الديني وغيرها. وبالتالي ليس هناك سوى وجدانات ترتبط بموضوعات دينية ارتباطاً وشعوراً بعالم غير منظور ليس حتماً أن يكون إلهاً، بل لا يمكن أن نسمي شخصاً متديناً دون أن يكون معتقداً بوجود إله.

فالدين عند جيمس هو الاعتقاد بعالم غير منظور، وأن خيرنا الأسمى كائناً في إيجاد تلاؤم بيننا وبين ذلك العالم، وما يدلنا على وجود ذلك العالم هي

(١) ينظر: إرادة الاعتقاد، ويليام جيمس، (ص ٤٠).

د . زياد بن عبد الله الحمام

التجارب الدينية والصوفية والنفسية، وعليه فإن جيمس يقدم لنا تحليلاً سيكولوجياً يرفض على أساسه أن يكون جوهر الإيمان العاطفة والعقل بل الإرادة وهو ما نحتاج إليه^(١).

وبوصف قضية حرية الإرادة من المباحث العقلية، فإن جيمس يؤمن بأن الإنسان مختار في أفعاله، وليس مجبراً عليها، فافتراض أن الإنسان حر الإرادة، وطلب منه أن يسلك كما لو كان الافتراض صحيحاً، ويقول: إن الإنسان سيجد نفسه حينئذ حر الإرادة وأنه يستطيع خلق أفعال جديدة.

والفعل الإرادي عند جيمس له عنصران:

الأول: عبارة عن فكرة في عقل فرد ما، وتتحول هذه الفكرة إلى فعل حركي، هذا الفعل الحركي هو الأثر الناتج لسيطرة الفكرة على عقل الفرد.
والثاني: عبارة عن ما ينتج عن الفكرة من حركات جسمية، فهو شيء فسيولوجي يحدث في أساسه، أي: يخضع لقوانين فسيولوجية تتعلق بالحوادث العصبية ونحو ذلك.

وعلى كل حال فإن هذا الرأي لا يمكن قبوله أو التسليم به؛ لأن الإيمان لا يتوقف على العواطف والمشاعر والأحاسيس وحسب، لأنها تتقلب ولا تستقر على حال، وبالتالي فإن الإنسان سوف يؤمن عندما يكون في حالة مزاجية عاطفية وجدانية، ويعود إلى الإلحاد عندما تتغير أحواله العاطفية والمزاجية، وقطعاً فإن الإيمان ليس كذلك، إنما هو صرح يقوم على أسس عقائدية يؤمن الإنسان، ويلتزم بها، ويسلم لها؛ لأنها من عند الله عز وجل، ولن تكون إلا في

(١) ينظر: سيكولوجية الدين عند ويليام جيمس، منتهى عبد جاسم، الحوار المتمدن، العدد ٣٣٥٢، ٢٠١١م.

مفهوم التجربة

صالحه، قال تعالى: { إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون } [النور: ٥١ - ٥٢].

هذا ويرى جيمس أن البحث في حرية الإرادة قائم على البحث في التفرقة بين الجبر والاختيار، وجوهر المشكلة بين الجبر والاختيار هو الإمكان، وليس له معنى عند جيمس سوى أن الصدفة قائمة.

يقول جيمس: "وإذا قلت: أن للصدفة وجودًا حقيقيًا فلست جادا في ذلك. لسنا متأكدين من أننا في عالم به صدفة أو ليست به، ولكن يبدو لي أنه كذلك. أنا أريد عالم الصدفة، قل فيها ما تشاء، لكنني أرى أن الصدفة لا تعني أكثر من التعدد، فإذا تشبثت بعالم كامل فإني لا أزال أعتقد أن عالمًا به صدفة أفضل وأحسن من عالم ليست به".^(١)

ويرى جيمس أن الجبر هو القول بأنه ليس للمستقبل إمكانيات غامضة، ومن المحال أن يوجد مستقبل جديد عما هو ثابت منذ الأزل، كما عد الإنسان مختارًا في أفعاله وليس مجبرًا عليها. ويرى أيضًا أن الاختيار هو أن الإمكانيات في تحقق مستمر وأن العالم ليس وحدة متماسكة وضرورية وإنما هو تعدد، ولكنه تعدد غير مطلق، أي أن الرباط بين الأشياء ممكن وأن الانفصال بينها ممكن أيضًا. وليس ضروريًا ولا مستحيلًا. إن العالم في تصور جيمس

(١) ينظر: الفلسفة التقدمية، حسن محمد الكحلان، مكتبة مدبولي، القاهرة، (ص ١٩٦)، ومقالة: ويليام جيمس والفلسفة البراغماتية، د/ أكرم مطلق محمد، على الرابط . <http://www.flsafa.com/٢٠١٦/١١/pragmatism-ethics.html>

د . زياد بن عبد الله الحمام

مملوء بالممكنات يتحقق بعضها الآن وينتظر البعض الآخر تحققه في المستقبل^(١).

المطلب الثاني: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على الأخلاق

كان لمفهوم التجربة عند ويليام جيمس انعكاس كبير ومؤثر على رؤيته لقضية الأخلاق؛ فجيمس يضع الأحكام الخلقية مع المسائل الطبيعية في ركن واحد، ويرى أنهما متساويان تمامًا من حيث استحالة وجود الحق المطلق في كل منهما، ومن حيث تأثير التجربة عليهما.

يقول جيمس: «الغرض الرئيسي من هذا الموضوع هو تبين أنه من المستحيل تكوين فلسفة أخلاقية ووضع قواعد نظرية لها قبل وجود التجارب الفعلية، تبين أن كل واحد منا يسهم في بناء مدلول الفلسفة الأخلاقية كما يسهم في بناء الحياة الخلقية للجماعة الإنسانية، وبعبارة أخرى تبين أنه لا يمكن أن يكون هناك حق مطلق في الأحكام الخلقية، كما أنه ليس هناك حق مطلق في المسائل الطبيعية، حتى ينقرض ذلك النوع الإنساني وتنتهي أفعاله وتصرفاته»^(٢).

ومعنى هذا أن جيمس يرى أن علم الاخلاق مثل العلوم الطبيعية مستعد للتغيير من نتائجه من آن لآخر على مر الزمن على أساس أن الآراء الذائعة حق، وأن القانون الحق هو ما يعتقده الرأي العام، وأنه قابل للتغيير كلما تغير الرأي العام، وقد يتغير الرأي العام بتأثير أحد الأفراد.

هكذا يرى جيمس أن الأحكام والقواعد الأخلاقية تجريبية ومتطورة مع الزمن ولا ثبات لها إلى أن ينتهي الإنسان من على الأرض، وهو بهذا يسوي بين الأخلاق والطبيعة في أن كلا منهما خاضع للتجربة الإنسانية. فلا يمكن

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: إرادة الاعتقاد، ويليام جيمس، ترجمة: محمود حب الله، ١٩٩٦، (ص: ٧٩).

مفهوم التجربة

تكوين فلسفة أخلاقية أو قواعد نظرية للإخلاق عن طريق غير تجريبي، وأن الإنسان هو الذي يبني الفلسفة الأخلاقية والحياة الخلقية للجماعات الإنسانية، ومن هنا لا يمكن أن تكون هناك أحكام أخلاقية مطلقة حتى ينقرض النوع الإنساني وما يصدر عنه من سلوك.

يقول ويليام جيمس: «إن علم الأخلاق فيما يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبيعية، في أنه لا يمكن استنباطه كله مرة واحدة من مبادئ ذهنية بل لا بد أن يخضع للزمن، وأن يكون مستعداً لأن يغير من نتائجه من آن لآخر. والغرض المبدئي في كليهما، طبعاً، هو أن الآراء الذائعة حق، وأن القانون المعياري الحق هو ما يعتقده الرأي العام. وأنه من حماقة حقاً بالنسبة لكثير منا أن يحاول وحده التجديد في الأخلاق أو في العلوم الطبيعية. ولكن الزمن لا يخلو أحياناً من أن يوجد فيه بعض الأفراد الذين لهم هذا الحق من التجديد، وقد يكون لآرائهم أو لأفعالهم المجددة بعض الأثر المحمود فقد يضعون مكان القديم من قوانين الطبيعة أخرى خيراً منها، وقد يوجدون بمخالفتهم القواعد الخلقية القديمة في ناحية ما حاله أكثر مثالية وكمالاً من تلك التي كانت وتكون تحت تأثير القواعد القديمة»^(١).

ومن جهة أخرى، يرى جيمس أن الخير عبارة عن إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته، وتحقيقه يكون بالنجاح، وأن الشر ليس أساسياً وعنصرًا من عناصر الكون، ولكنه شيء يمكن التغلب عليه. لهذا يعلن جيمس أن التفاؤل والتشاؤم شيئان إنسانيان، أي أن الإنسان إذا اعتقد بأن العالم خير وسلك في الحياة وفق اعتقاده هذا، فإن العالم يصبح خيراً حقاً. وإذا اعتقد بالتشاؤم أي أن

(١) ينظر: إرادة الاعتقاد، ويليام جيمس، ترجمة: محمود حب الله، ١٩٩٦، (ص: ١٠١).

د. زياد بن عبد الله الحمام

العالم شر، وسلك وفق ذلك، فإن العالم يصبح شرًا حقيقيًا، ومعنى الخيرية عند جيمس هو ملاءمة عالمنا لحياة خلقية ودينية ناجحة^(١).

وعلى هذا فإن الخير عند جيمس يقوم على إشباع مطالب الإنسان وتحقيق رغباته، وتحقيق الخير إنما يكون بالنجاح في تجربة من تجاربنا في الحياة، وكثيرًا ما نضطر إلى إتيان أفعال دون أن يكون لدينا مسوغ نظري لذلك. ومعنى هذا أن من حقنا أن نعتق مبدأ خلقياً أو معتقداً لا يحملنا على اعتناقه تفكيرنا النظري المجرد، بل تدعونا إلى اعتناقه مطالب الحياة ومقتضياتها.

وعليه، فإن جيمس يرى أن الفعل الذي يأتيه الفرد خيراً يتحول عند صاحبه إلى سلوك ناجح في حياته، وخيريته (أي الفعل) تتوقف على تقدير صاحبه. ومن هنا ذهب جيمس إلى أن الفعل الفاضل هو الذي يشبع عند صاحبه رغبة أو يحقق له منفعة، وبمقدارها، تكون هذه النتيجة بمقدار حظه من الخير. هذه قاعدة الخير عند الفرد، وهي نفسها معيار الخير عند الجماعة، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الخير هو الحل الذي يعطي النتائج المثمرة الموفقة، وهو الذي يساعد الإنسان في التخلص من مشاكله.

أما الشر عند جيمس فهو القضية التي لم يستطع أن يجد لها تفسيرًا، فانتابته حالة انطوائية أدت به إلى تناقض نفسي، وهذا التناقض أدى به إلى حال من القلق، فمن قوله بوجود إله محب للإنسان التفت إلى فكرة أخرى تصور القوة الباطنة الجبارة التي لا تحب ولا تعطي، وإنما تطوي الأشياء طياً بلا قصد ولا غرض، وتقذف بها جميعاً وباختصار إلى مصير واحد محتوم. وهي فكرة تؤدي إلى خوف وفرع شديدين.

(١) ينظر: ويليام جيمس، محمد فهمي زيدان، (ص ١٦٤).

مفهوم التجربة

إن نظرية جيمس التي أسماها المليونرزم هي النظرية القائلة بإمكانية التحسن والتحول إلى الأفضل، وهو بهذا يقف موقفاً وسطاً بين مذهبي التفاؤل والتشاؤم؛ لأن العالم عنده ليس خيراً في ذاته وليس شراً في ذاته، وإنما يمكننا أن نجعله خيراً بمكافحتنا الشر الذي فيه^(١).

فالخير والشر في نظر جيمس متعلق بتحقيق مطالب الإنسان وإشباع رغباته، وذلك يكون بالنجاح في تجربة من تجاربنا في الحياة.

وفي هذا قول فاسد يلغي كل القيم الأخلاقية التي هي من صميم التركيبية الإنسانية، وفيه إنكار للقيم والمبادئ التي أقرها الشرع وجعلنا الحكمة منها، لقصور في معرفتنا وإدراكنا، مع اعتقادنا بأن الخير كل الخير يكمن فيها، فمن يقوم بتحديد الخير والشر ليس الإنسان وإنما يحدده الخالق. والشارع قد يقر أمراً يرى فيه الحق، ويرى الإنسان فيه قصوراً وشراً، وبينما هو في حقيقة أمره خير، وذلك كما ورد في قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢١٦]، ناهيك عما قد يجهله الإنسان من الترجيح في الأمور النافعة والضارة والتي يحسمها الحق سبحانه وتعالى للناس كما في قوله تعالى: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) [البقرة: ٢١٩]

هذا وقد نالت نظرة جيمس وفلسفته نقداً واسعاً من الباحثين فيقول الدكتور توفيق الطويل: «يكفي أن نعتبر البرغماتية الحق أو الخير كالبضاعة المطروحة في الأسواق، قيمتها لا تقوم في ذاتها، بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلاً، فالحق

(١) ينظر: ويليام جيمس والفلسفة البراغماتية، د/ أكرم مطلق محمد، مقال

. <http://www.flsafa.com/٢٠١٦/١١/pragmatism-ethics.html>

د. زياد بن عبد الله الحمام

فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها، ولم يجد أصحاب البرغماتية غضاظة في النظر إلى الحق أو الخير، كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق، هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة وفي الأخلاق وفي السياسة وفي كل مجال»^(١).

فمن الواضح عجز هذا المذهب عند كل فلاسفته عن استيعاب علاقات وروابط إنسانية أبعد ما تكون عن تحقيق منفعة، أو البحث عن تحقيق رغبات شخصية وأهداف مادية، بل على النقيض، تنبعث من حب التضحية والفداء بالوقت والنفس والمال، كالمجاهدين في سبيل الله كما نعرفه نحن معشر المسلمين، وكذلك المؤتون حقوق المال من الزكاة والصدقات والأوقاف الخيرية وأعمال البر كلها، أضف إلى ذلك طاعة الأبناء لأبائهم وأمهاتهم مهما كلفهم ذلك من تضحيات، ولا ننسى العلاقة التي تربط الآباء والأمهات بالأبناء، وصلات الأرحام من الإخوة والأخوات والأقرباء كالأخالات والعمات، والتوصية بحسن الجوار ومعاونة الأصدقاء والزملاء ومشاركتهم في الأحزان والمصائب وتخفيف وقعها عليهم. كل هذه الأعمال تحكمها قيم معنوية - لا نفعية حسية - ترتقي بالإنسان إلى أعلى المراتب؛ إذ تخلصه من أنانيته ومنافعه الخاصة وتندرج تحت أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، وكلها قيم معنوية مطلقة.^(٢)

(١) ينظر: الفلسفة الخلقية نشاتها وتطورها، توفيق الطويل، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، (ص ٢٧٨).

(٢) الأخلاق في الفلسفة العملية ونقدها، دكتور مصطفى حلمي، مقال:

http://www.alukah.net/sharia/٠/٤٤٢٥٣/#_ftn٥

وينظر أيضاً: مقدمة في الفلسفة العامة، يحي هويدي، دار الثقافة، القاهرة، ط ٨، ١٩٨٦م، (ص ١٦١).

مفهوم التجربة

المطلب الثالث: تأثير مفهوم التجربة عند ويليام جيمس على الدين

أما فيما يتصل بالتجربة الدينية وإرادة الإيمان، فإن ويليام جيمس يرى أن الإنسان كانت له، وستكون له دائماً تجربة دينية، ذلك أن الإنسان شعر من حوله بحضور تجربة أخرى قريبة من تجربته هو، ومتعاطفة مع أمانيه ومطامحه، وتتاضل معه ضد الشر وتعمل في صالح الخير، وتشيع في نفسه السلوى، لهذا يفوض أمره ويطلب العون من هذه الحضرة، ويدعوها ويشرك روحه بروحها، وهذه التجربة تتجاوز النوع المألوف من التجارب، وهي التجارب الحسية ومعطياتها، لكنها مع ذلك تجربة، وما دامت تجربة فيحق لنا أن نفسرها، مسترشدين في ذلك بالمنهج نفسه الذي قامت عليه التجربة الحسية، أي: فكرة الفائدة أو المنفعة العملية المترتبة عليها، فإن كانت تقدم لنفوسنا الطمأنينة والسعادة والسلام، فينبغي أن نعدّها "صحيحة" تبعاً لمعيار الحقيقة، وأسلم طريقة لتفسير هذه التجربة بحسب المنهج البرجماتي هي أن نفترض أنها آتية من شعور وعي شخصي آخر مماثل لشعورنا، ومصادق لنا، ومستعد لنجدتها^(١).

وتعد أبرز نظريات ويليام جيمس الفلسفية هي نظرية إرادة الاعتقاد، وينطلق جيمس في هذه مبيناً أن كل شخص له الحق المطلق في الاعتقاد والإيمان، ذلك أن منطق العقل عاجز عن أن يثبت صحة الشيء، لهذا تكون رغباتنا ودوافعنا الذاتية هي الأساس في إثبات وتقرير صحة الأشياء التي لا يمكن للعقول إثباتها أو الجزم بها، فهناك إذًا طريقان للاعتقاد هما: طريق العقل، وطريق الوجدان.

(١) ينظر: البراجماتية، ويليام جيمس، ترجمة: محمد علي العريان وتركي نجيب، (ص ٦٩)، وموسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (١/٤٩٩).

د . زياد بن عبد الله الحمام

وهذا ما أوضحه جيمس بقوله: «إن اعتقادنا في بعض المسائل التي آمننا بها أثر بفعل طبائعنا الوجدانية والاختيارية، وأن اعتقادنا في بعض آخر منها أثر لمجهوداتنا العقلية»^(١). فمعتقداتنا إذاً لا يمكن لها أن تقتصر على طريق واحد فقط وهو العقل، إنما هنالك طريق آخر تختلف طبيعته عن طبيعة العقل، وهذا الطريق قد أطلق عليه جيمس تسميات مختلفة، مثل: الإرادة أو الوجدان أو الرغبة.

ولهذا فنحن لسنا موجودات عقلية محضة تتولد معتقداتها عن اقتناع عقلي وبداهة منطقية، بل إن عامل الاختيار هو الذي يحدد اعتقادنا إلى حد كبير، ومعنى هذا أن طبيعتنا غير العقلية تؤثر بشكل واضح في معظم آرائنا ومعتقداتنا.^(٢)

وعامل الإرادة والاختيار بوصفه العنصر الحاسم في الاعتقاد من وجهة نظر جيمس أمر ضروري للإنسان، فالمشكلة أو اللا أدري، الذي يظن أنه بالتزامه الحياد فإنه يتفادى الاختيار هو في الحقيقة في قلب الاختيار، لكنه اختيار مشوب ببعض المغامرة والمخاطرة شأنه في ذلك كشأن شخص رفض وظيفة لأنه لا يملك الأدلة المسبقة على أنها ستناسبه وستحسن من وضعيته وهو بذلك يباعد بينه وبين تلك الوظيفة، وكذلك رافض الاعتقاد إنه يفضل أن يغامر عدم الوصول إلى الحقيقة على أن يعتقد في قضية خاطئة، فإذا كان المعتقد يخاطر بكل شيء من أجل فروضه الدينية وأمله أن تكون حقيقية وحية، فإن رافض الاعتقاد يخاطر بالفروض الدينية من أجل مخاوفه وشكوكه. فالقول إن الشك في الفروض الدينية وواجبنا حتى نكتشف براهين كافية ثبت صحتها هو

(١) ينظر: العقل والدين، ويليام جيمس، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩م، (ص ٦).

(٢) ينظر: الأخلاق والدين بين ويليام جيمس وجون ديوي، نبراس زكي خليل، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م، (ص ٦٣).

مفهوم التجربة

بمثابة القول بأن الاستجابة لمخاوفنا من كون الفروض الدينية خطأ أولى وأحكم من الاستجابة لآمالنا في صحتها، فليست المسألة إذن مسألة القوة العاقلة ضد الميول ولكنها القوة العاقلة أحد الميول ضد ميل آخر.

فالتفسير الذي يعتمده ويليام جيمس في تبرير التجارب الدينية يجمع بين روح فلسفته البراغماتية وبين تجربيته الجذرية، فنجده يعتبر الإنسان كائنًا متدينًا له تجارب دينية استقاها من شعوره بوجود تجربة أخرى أقوى منه تتجاوزته وتفوق قدراته وتملك العديد من الصفات والخصائص التي تعوزه هو ولا يتمتع بالكثير منها فقرر الاحتماء بها والارتقاء في أحضانها^(١).

والتجربة الدينية في نظره تكتسب أهميتها في تأسيسها لنزعة ارتقائية إنسانية فردية تفاؤلية، تُمكن الفرد الذي يعتقد في المطلق من تجاوز التشاؤم، بوصفه مرضًا دينيًا يُكرس نظرة سوداوية نحو الحياة التي تستحق أن نعيشها؛ فالتخلص من التشاؤم يتم عبر ما يسميه جيمس النزعة الارتقائية؛ إذ ينظر الفرد إلى الأشياء باعتبارها نافعة ولها قيمة عملية، ويتغلب على الشرّ بحُسيان الفرد سليم العقل.

وتتوافق عملية تطهير الروح مع التجربة الدينية التي تُخلص الإنسان من الخطايا عبر التجربة الصوفية؛ حيث يتماهى الجانب الروحاني للإنسان مع العالم اللامرئي، مُتجاوزًا قدرات الإنسان الحسية. بهذا المعنى، تُعدُّ عملية التطهير تحريرًا للوعي، وتحقيقًا للنزعة التفاؤلية؛ إذ تشعر الذات أثناء التجربة

(١) ينظر: الدين كتجربة والاعتقاد كإرادة عند ويليام جيمس، حمادي أنور، بحث قسم الفلسفة والدراسات الإنسانية، مؤسسة دراسات وأبحاث، ٢٠١٦م، (ص ٨).

د . زياد بن عبد الله الحمام

الدينية باتحادها مع الله، مما يعكس أرقى درجات الشعور النفسي الذي يستحوذ على الفرد عندما يشعر بوجود كائن أعظم منه^(١) .

وإذا كان أصحاب المذهب العقلي يقدمون أدلة منطقية على وجود الله فإن ويليام جيمس يرفض ذلك، ويرى أن هذه الأدلة لا يمكن أن تقنع جميع الناس على اختلاف مستوياتهم إنما ينبغي على الدين المؤسس على العقل الخالص أن يقنع الناس جميعاً، ولكن لما كان ذلك أبعد ما يكون عن الواقع الفعلي كان على اللاهوت الطبيعي أن يسحب دعواه بأنه علم برهاني متميز، فهو ليس في الواقع أكثر من نتاج جانبي للعاطفة الدينية التي تقوم بالتعبير عن قناعاتها وتفسيرها، ولا تقنع حجج اللاهوت الطبيعي إلا أولئك الذين يملكون الإيمان الديني فعلاً، ولكنها تترك الآخرين فاترين دون أدنى تأثير، ومن ثم لا وجود لمعيار نظري مستقل نستطيع أن نحكم به على الاعتقاد الطبيعي في إله متناه، إن جيمس اعتبر الحقيقة العقلية هي جزءاً من الإرادة والعاطفة الدينية التي هي المبدأ أو المنطق الحقيقي لكل دين، ولا يمكن أن يكون هنالك بديل آخر غيرها، فالإله الحقيقي هو الذي ينبع من داخل الفرد وليس ما تمليه عليه الأدلة المنطقية والعقلية^(٢) .

إن فالدين عند جيمس في أساسه هو تجربة وأمر نحسه ونعيشه، وأنه إحساس بتوافق تلقائي أو مجبول بين الإنسان وبين نفسه وهو في نفس الوقت إحساس بصلة الإنسان بوجود أعظم منه هو الذي يحدث هذا التوافق، فالنشاط الديني الذي يميل إلى تزويد الشعور بوساطة اللاشعور، ولما كان اللاشعور يتميز في الشعور من أجل اللاشعورية فليس على علم النفس إلا أن يسلم بأن

(١) ينظر: فردانية التجربة الدينية، ويليام جيمس نموذجاً، هاجر محنيطو، قسم الدراسات الدينية، ٢٠١٤م.

(٢) ينظر: الأخلاق والدين بين ويليام جيمس وجون ديوي، نبراس زكي خليل، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م، (ص ٧٨).

مفهوم التجربة

النفس الإنسانية في منطقتها اللا شعورية تتصل بكائنات بعضها أعظم منها، وهذه الكائنات كأنها معطاة للتجربة الدينية^(١).

وإذا سلمنا مع جيمس بأننا نشارك مشاركة لا شعورية في موجود أعظم منا هو الله، وأنها تدخلنا بالفعل في عالم تتصل فيه الأرواح وتتفاعل لا من خارج وبوساطة ألفاظ وإشارات، بل من الداخل وبدون واسطة لأنها شعور قوي غير منازع بحضور إلهي يمنحنا ما لم تكن لتوفره لنا وجودنا واستدلالاتنا، وعلى هذه التجربة تقوم العقائد الثلاث التي ترجع إليها الحياة الدينية، وهي:

- عقيدة أن العالم منظور جزء من عالم غير منظور يمدده بكل قيمه.

- عقيدة أن غايات الإنسان الاتحاد بهذا العالم غير المنظور.

- عقيدة الصلاة، أي: المشاركة مع الإلهية فعل له أثر بالضرورة.

ويعد جيمس التجربة الدينية تتفق مع وقائع التجربة النفسية؛ لأنها تدلنا على أن تحت المجال الضيق للشعور منطقة عميقة تستمر فيها الحياة الباطنية، ومن هذا التيار السفلي تطفئ عواطف وإلهامات فجائية تبدو في الشعور، فهناك نوع عالٍ مما تحت الشعور يرفع النفس فوق الحياة الجسمية إلى حياة روحية ممتعة على العقل والإرادة. إذاً في المنطقة اللاشعورية يتم الاتصال بيننا وبين الله وبين سائر النفوس، وعلى هذا يلوح أن خصائص التجربة الصادقة تجتمع في التجربة الصوفية^(٢).

ومما ينبغي التنبيه إليه، هو أن بعض الباحثين قد يندعون بكلام "جيمس"، فيقررون اعتقاده بوجود الله من خلال الفلسفة البراغماتية، ولكن هذا لم يحدث،

(١) ينظر: إرادة الاعتقاد، ويليام جيمس، (ص ٤٣).

(٢) ينظر: سيكولوجية الدين عند ويليام جيمس، منتهى عبد جاسم، الحوار المتمدن، العدد

٣٣٥٢، ٢٠١١م.

د. زياد بن عبد الله الحمام

فالواقع أن "جيمس" قد ساوى من خلال فلسفته هذه بين كل الملل والنحل، سواء أكانت سماوية أم أرضية، صادقة أم مزيفة؛ لأن المعيار المعتمد في ثبوتها وصحتها هو مقدار ما تحققه من منفعة وراحة وطمأنينة مباشرة أم غير مباشرة لمعتقدها، والسبب في ذلك هو أن المعيار في الصدق والحقيقة لدى البراجماتية مقلوب، فعندهم يكون الحق حقاً إذا كان نافعاً، ومتى لم يكن نافعاً فهو ليس بحق، بينما الحق والعقل والمنطق يقتضي أن الحكم على الحق والصدق ليس مرتبطاً بالمنفعة، فكل حق يكون نافعاً وليس العكس^(١).

ولا شك أن تلك النظرة البراجماتية للدين وتقييمه أو إناطة أهميته بالتجربة أمر لا يتفق مع حقيقة الدين الإلهي والحكمة الإلهية منه، يقول الدكتور توفيق الطويل: «وحتى الدين، فقد أقامه على التجربة، فحاول أن يثبت أن اعتناق الدين والإيمان بالله حق؛ لأنه يتحول عند المؤمن إلى سلوك ناجح لا حياته، فالإيمان يساعد صاحبه على احتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل، بعكس الإلحاد الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار إذا أصابته كارثة»^(٢).

فهذا الاعتقاد يجعل البرغماتية في موضع نقد شديد؛ لأنها أخضعت أعظم علاقة تربط بين العبد وربه - عز وجل - إلى مجرد علاقة نفعية تتأرجح بين الإيجاب والسلب، فأين الإيمان الذي يهب الإنسان القدرة على مقاومة أعتى الصعاب؟ وهو نفسه - أي ويليام جيمس - مع طور من أطوار حياته - استطاع التغلب على المرض بإرادته النابعة من إيمانه^(٣).

(١) انظر: البراجماتية عرض ونقد، منصور الحجيلي، ط ٢٠١٠م، مجلة الدراسات العقديّة، السعودية، (ص ٣١٦).

(٢) ينظر: الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، توفيق الطويل، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، (ص ٢٧٦).

(٣) الأخلاق في الفلسفة العملية ونقدها، دكتور مصطفى حلمي، مقال:

http://www.alukah.net/sharia/٠/٤٤٢٥٣/#_ftn٥

مفهوم التجربة

إن مجرد التفكير في إخضاع الدين للتجربة هو شك في صحته، والدين لا يقبل شكاً، فلا يجوز الجمع بين الشك والإيمان؛ لأن أمور الإيمان تتجاوز الحس ولا تدخل في مجال التجربة، والمسلم الحق لا يضع عقيدته موضع الشك ولا يجعل إيمانه بالله موضع اختبار، بل على العكس تماماً يؤمن بأن الله عز وجل يختبر عباده^(١)، قال تعالى: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [العنكبوت: ٢ - ٣]، وقال تعالى: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) [الأنبياء: ٣٥]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"^(٢).

وثمة ملاحظة بالغة الأهمية أيضاً على فلسفة جيمس فيما يتعلق بطبيعة الإله؛ فجيمس من خلال فلسفته ومفهومه للتجربة لم يستقر على طبيعة محددة

(١) ينظر: البراجماتية بين العقيدة والمعاصرة، د. بدرية الفوزان، بحث منشور في مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، جامعة المنوفية كلية الآداب، (ص ١٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (ح: ٦٤).

د . زياد بن عبد الله الحمام

للإله، هل هو واحد أم متعدد؟ هل هو قوي فعال لما يريد أم أنه عاجز؟ هل هو خير أم شرير؟ فكل هذه الصفات وغيرها لطالما كان يتلاعب بها دون أن يبدي موقفاً واضحاً إلا أنه مع ذلك كان يفترض أن هناك آلهة متعددة في الكون بدلاً من إله واحد فقط، وقد أدى به وجود الشر في العالم، ومع ذلك يوجد الله - كما يرى جيمس- في العالم بالمعنى الواقعي، أي أنه يوجد مستقلاً عنا مع أنه يكون مألوفاً لنا ولمثلنا العليا، ويرى جيمس أن الإنسان قد يتعاون مع الله ويطيعه ويبدي له خضوعاً واحتراماً وإخلاصاً كما يساعده في تنفيذ أغراضه وأهدافه الكثيرة، لكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد علاقة كنتك التي تقوم بين الأب وابنه، وبين المدرس وتلميذه ونحو ذلك^(١).

* *

(١) ينظر: الدين كتجربة والاعتقاد كإرادة عند ويليام جيمس، حمادي أنور، (ص ٤٤).

مفهوم التجربة

النتائج والتوصيات:

ومن خلال هذا البحث خلصت إلى النتائج والتوصيات التالية:

- أن ويليام جيمس يعد أبرز فلاسفة البراغماتية، وعلى يديه تم التأصيل والتنظير للمذهب البراغماتي وإثرائه فكرياً.
- لطبيعة التجربة في فكر ويليام جيمس آثارها المباشرة على العقل والفكر والأخلاق والدين.
- الرغبة والعاطفة والإرادة عند جيمس من أبرز المؤثرات في تشكيل اعتقاد الإنسان لا النظر العقلي.
- الخير والشر في نظر جيمس متعلق بتحقيق مطالب الإنسان وإشباع رغباته.
- يؤمن ويليام جيمس بأن الإنسان مختار في أفعاله، وليس مجبراً عليها.

وأوصي بالآتي:

- الاهتمام بالدراسات الأكاديمية المتعلقة بالفلسفة البراغماتية عموماً وبأفكار ويليام جيمس خصوصاً.
- أفراد مصنفات ويليام جيمس كالبراغماتية والعقل والتجربة الدينية بدراسات مستقلة يمكن خلالها تتبع منهجه بالتحليل والتدقيق.

* *

قائمة المصادر والمراجع:

- *بدرية الفوزان، البراجماتية بين العقيدة والمعاصرة، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة المنوفية، مصر، ٢٠١٤م.
- *توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.
- *حسن محمد الكحلان، الفلسفة التقدمية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- *حلمي المليجي، مناهج البحث في علم النفس، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، ٢٠٠١م.
- *حمادي أنور، الدين كتجربة والاعتقاد كإرادة عند ويليام جيمس، بحث قسم الفلسفة والدراسات الإنسانية، مؤسسة دراسات وأبحاث، ٢٠١٦م.
- *سالم العماري، خطوات المنهج التجريبي، مجلة التربية، الجامعة الأسمرية، العدد ٣، ٢٠١٧م.
- *سفيان البطل، المنهج الفلسفي عند ويليام جيمس، مركز دراسات مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٦م.
- *شولبهافات بورياكو شاروين، طبيعة التجربة الدينية في فلسفة ويليام جيمس، ترجمة: سفيان البطل، مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٧م.

مفهوم التجربة

*علاء الدين صادق الأعرجي، في مواجهة التخلف من أجل هيكل عربي شامل، إصدارات: إي-كتب، لندن، ٢٠١٦م.

*محمد المبعوث، المنهج التجريبي، جامعة الملك سعود، كلية العلوم الاجتماعية، ١٤٣٤هـ.

*محمد خيرى وآخرون، علم النفس التجريبي، مطبوعات جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م.

*محمد فتحي الشنيطي، ويليام جيمس، مكتب القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٥م.

*محمد فهمي زيدان، ويليام جيمس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.

*مصطفى حلمي، الأخلاق في الفلسفة العملية ونقدها، مقال:

http://www.alukah.net/sharia/٠/٤٤٢٥٣/#_ftn٥

*منتهى عبد جاسم، سيكولوجية الدين عند ويليام جيمس، المحاور المتمدن، العدد ٣٣٥٢، ٢٠١١م.

*نبراس زكي خليل، الأخلاق والدين بين ويليام جيمس وجون ديوي، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠٠٣م.

*هاجر محنيطو، فردانية التجربة الدينية، ويليام جيمس نموذجاً، قسم الدراسات الدينية، ٢٠١٤م.

===== د زياد بن عبد الله الحمام =====

*ويليام جيمس، إرادة الاعتقاد، ترجمة: محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٤٦م.

*ويليام جيمس، البراغماتية، ترجمة: محمد العريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

*ويليام جيمس، العقل والدين، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩م.

*يحي هويدي، مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة، القاهرة، ط ٨، ١٩٨٦م.

* * *